وعلاقة الديمقراطية بهذا فى رأى « لونارد وولف » ومن يجارونه أن المساواة قد خولت الفرد حرية الظهور فبرزت الخصائص واستحقت من الشعراء والكتاب عناية لم تكن تستحقها حين كان الجمهور أرقاماً متكررة على نموذج واحد ، أو حين كان النبلاء طرازاً مرسوم المراسم لا يختلف فيه إنسان عن إنسان

رأي جميل لا شك فى صدقه واحتوائه للكثير من الأصول والملاحظات ودلالته على سعة المعرفة وحسن التحليل والتعليل

ولكن ما نصيب ذلك الرأى لو وقع للمحدودين من أصحاب الحدود الحاسمة ومن جماعة المطالبين بتعداد الحجرات إذا قيل إن النهار ضياء والليل ظلام ؟

فقبل القرن السابع عشر رسم شكسبير بطله « هملت » وهو ولا ريب « فرد » بين أمراء جميع الأزمان وليس بالنموذج المتكرر فى طبقة الأمراء

وقبل القرن الأول رسم هومير أبطاله الفرسان وهم مختلفون اختلاف أفراد لا اختلاف نماذج

فأين يذهب رأى وولف الجميل لو صدمناه باعتراضات شتى على هذه الوتيرة ؟

يذهب إلى حيث تخسره ويخسره النقد وميزان الآداب ، لأن وصف الشخوص بعد القرن السابع عشر قد اختلف وكانت لاختلافه علاقة بالديمقراطية ما فى ذلك مراء . وعلينا نحن أن « نتصرف » في التفريق بين أجزاء ذلك الرأى فنضيف إلى ميزان الأدب صنجة تعين على الضبط والتمييز . أما إذا أبطلنا الرأى وعطلناه حتى يعود لنا وولف ببيان الحجرات المضيئة فى الليل والحجرات المظلمة فى النهار فنحن الخاسرون لأننا نجهل مواقع التدقيق لا لأننا نعرف التدقيق فى نقد الآراء

الحد الحاسم أو العقل المحدود هو آفة الجامدين الكبرى ، وهو علة الركود فى آدابنا وفنوننا ، ولكننا نتغلب عليه ونروض عقباته ، ولا نستدل على ذلك بشيء أدل من زهدنا في الجدل « البيزنطى » عاماً بعد عام

عباس محمود العقاد

كلمة موجزة

المتنبي

أبو تمام ، الوزن ، القافية ، التجديد

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

في (العمدة) لابن رشيق : ثم جاء أبو الطيّب فملأ الدنيا ، وشغل الناس

* * *

فى (المثل السائر) لابن الأثير : وقفتُ على أشعار الشعراء قديمها وحديثها فلم أجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعانى الدقيقة ، ولا أكثر استخراجاً منهما للطيف الأغراض والمقاصد

* * *

فى (خزانة الأدب) للبغدادى : المتنبي سريع الهجوم على المعانى

* * *

فى (شذرات الذهب) لابن العماد : ليس فى العالم أشعر من المتنبي أبداً ، وأما مثله فقليل

* * *

قلت ذات مرة للعربيّ الألمعيّ الأستاذ (رياض الصلح) — وقد ذكرنا المتنبي وأبا تمام — : إن الأول كان يحلق فى سماء الشعر بمعانيه ، وإن الثانى كان يغوص فى بحره على لآليه ، فقال : قِفْ . إذن ، المتنبي (طيارة) ... وأبو تمام (غواصة) ...

* * *

ولقد جاء الذى شغل الناس ، والذى هو دهره من رواة قلائده بما جاء به وهو من تلك القافية وذاك الوزن فى سجن . ولولا هذان لأسمك (أحمد) من القريض — الذى هو أعجب ، وأراك ما هو آنق مما رأيتَ وأغرب . ولولا هذان لجوّدت الأيام أيما تجويد تسطيرَ ما أملى قلم يقل :

ولم تُحسن الأيام تكتبُ ما أملى (١)

رُبَّ ما لا يُعبّر (الشعر) عنه

والذى يُضمرُ الفؤادُ، اعتقادُه (٢)

وما قيّد الشعرَ العربيّ إلا قوافيه، وما قصّرَ خطواته فى ميادين الشؤون إلاّ تلكم الأوزانُ (البدويّة) وإلاّ هى؛ والقافية فى أكثر الأحايين هى القائلة لا القائل، والوزن هو الوازن لا شعور الشاعر؛ فأكثر الشعر ليس لأهله لكنه للوزن أو للقافية ... إنه مما أتى، مما وُجد ... ليس هو مما قُصد ... وكائنٌ فى الضمائرِ من معانٍ باهراتٍ مدهشات قد غيبتها القوافى!

وإذا كان ذلك القديم الكريم الموروث قد كفى فى شىء فثمّة أشياء لم يستقلّ بها، والرغائب والمطالب فى (الحضارة) فى كل وقت جمّة

ولولا أنّ عبقريّةً منتخيةً قويّة عند المتنبي قد أنكرت الجرْىَ على أساليب القوم أو بعض أساليبهم،

إذا كان مَدحٌ فالنسيبُ المقدَّمُ

أكلُّ فصيح قال شعراً متيّم (٣)؟

وأرادت أن تحرر رِيّها لأقام (الكندى) دهرَه من تُبّاع (الطائى) يأخذه بأخذه فلا يجاريه، ويكدّ روحه فى أن يصوغَ كما يصوغُ فلا يساويه؛ وحبيبٌ فى صَوْغِهِ وغَوْصِهِ لا يلحق. «أراد المتنبي أن يسلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه خطاه، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه (٤)» وقلّما ضارع كبيرٌ مقلِّدٌ عظيماً مقلَّدا

ولم يستطع المتنبي — على تبريزه وارتقائه — أن يزحزح حبيباً عن مكانته، وما قدر إلا أن يقعد فى عرش الشعر معه. وليس بقليل أن يقتطع من ملك حبيب ما اقتطع، ويختلج من رعاياه من اختلج. فالناس بعدهما فى كل زمان حزبان: متنبّ، وتمامىّ، لكن جماعة (أحمد) أكثر عدداً، و (للحبيب) شيعة به مغرمون

وقد قالوا: أبو تمام عند الخاصة أشعر، والمتنبي أشعر عند العامة. وما أنصف المتنبي هؤلاء القائلون. إن فى (السيفيات والكافوريات والعضديات) وغيرهن لآيات بينات، وإن فيهن لسحرا. وإذا كان لأبى تمام عشر قصائد علا بهن علوّاً كبيراً، فان للمتنبي قدّامهن خمسين قصيدة أو أكثر من ذلك. وقد يقول قائل — وفي قوله حق — إن طول الأجل وقصره قد أعطيا ومنعا، فلم يعمّر (حبيب) ما عمّر (أحمد)

وكان شيوخ ابن خلدون يرون — كما قال — أن نظم المتنبي والمعرى ليس هو من الشعر فى شىء — الله أكبر! — لأنهما لم يجريا على أساليب العرب (١)

وكلام هؤلاء الشيوخ (شفاهم الله، وشفى ناقل قولهم معهم) ليس بشىء إلا شيئاً لا يُعبأ به؛ فأساليب العرب متنوعة مختلفة، وليس هناك أسلوب أوحد؛ ولكل قبيل طريقة، وللبدوى بلاغة، وللحضرى بلاغة، وللاقليم أو المكان، وللخليقة والمزاج أثرٌ وسلطان؛ ولكل عصر أو قَرن زيّ ولحن. و «أحسنُ الكلام ما شاكل الزمان (٢)» والدنيا فى تبدّل مستمر، «وأحوال العالم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر (٣)» ولكل نابغة نهجٌ معلوم

فتنكّبُ المتنبي عما تنكّب عنه، وسلوكه السبيل الذى

(١) فى رثاء عبد الله بن سيف الدولة، والصدر (وما نعى الأيام على بأمرها) وفى هذه القصيدة:

هل الولد المحبوب الا تلة وهل زورة الحسناء إلا أذى البعل
وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

والمعرى من هنا مشى فى تكريه الحياة والنسل إلى الناس

(٢) فى أبى الفضل بن العميد يهنئه بالنيروز وفى القصيدة يقول:

مربى لسانه، قلبى رأيه، فارسية أعياده
خلق الله أفصح الناس طرا فى مكان، اعرابه أحكراده
مثل ما أحدث النبوة فى العالم (م) والبعث حين شاع فساده

(٣) مطلع قصيدة للمتنبي فى سيف الدولة

(٤) المثل السائر

(١) فى (الجزء الأول من كتاب العبر) المقدمة لابن خلدون: الشعر هو الكلام البليغ، المبنى على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجارى على أساليب العرب المخصوصة به. فما كان من الكلام منظوما وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعراً. وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا فى هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعرى ليس هو من الشعر فى شىء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب

(٢) المأمون فى كتاب الايجاز والاعجاز للثعالبى

(٣) العلامة الفيلسوف ابن خلدون فى (مقدمته)